المدنية الحديثة في قفص الاتهام

لا يتكلم الانسان عن المدنية الحديثة إلا لأنها تتكلم عنه ، وإلا لأنها تمسه بكثير أو قليل ، وإلا لأنها تملك عليه حواسه ، وإلا لأنها تضع له القواعد لحياة جديدة . ولولا ذلك ما كان ليتشط بذكرها لسان ، ويجرى بما طاوعليها قلم ؛ فهى موضوع الحديث إذا جد الحديث عن حياة الانسان ، وهى المصدر الذى تبعث منه أفكار الانسان فى هذا العصر وتؤخذ منه نظرياته ، وهى الأصل الذى يتفرع عنه خياله وتثمر منه آراؤه ، وهى اللون الذى تصطبغ به سماء حياته وتمتزج به أهواؤه وأذواقه ، وهى المادة التى تتغذى منها روحه ويقوى شعوره ، فهو أبداً يتساءل عن هذه القوة التى ترغمه لها ، وهو أبداً يتساءل عن هذه المدنية الحديثة ، وكيف أنها سادت هذا العالم وطغت عليه وشغلت منه القلب والرأس ، وهو أبداً يتساءل عن الباعث الذى يجعله مدفوعاً مع تيارها ، مأخوذاً بالصالح والفاسد فيها على السواء ، وهو أخيراً يهمه أن يقف على هذا كله ، ثم هو بعد ذلك يتهالك على مقعده محزوناً مكتظاً بالأفكار مثقلا بالهموم ، يسائل نفسه : أليس لهذه المدنية حد تقف بناعنده؟

***

فالمدنية الحديثة إذاً تمسنا وتلازمنا سواء أرضينا أم كرهنا ، وهى لاشك تؤثر كذلك فى حياتنا تأثيراً ظاهراً . ولسنا منكرين آثارها فى أصحابها وصاحباتها الذين ابتدعوها وكانوا أول من كسحتهم بغبارها ولفحتهم بهجيرها ، إلا أننا نريد أن نقول — ولا حرج فيما نقول — إن من آثارها الظاهرة الخطيرة ، تلك الجرائم الكثيرة . .

ولسنا منكرين يوماً فضل هذه المدنية الحديثة فى تكوين العقول الانسانية تكويناً مناسباً لها ، وما أحدثته من التفكير الدقيق فى خلايا الجماجم البشرية ، تفكيراً ينهض بحملها وقيادتها إلى نهاية مجهولة ، حتى آمنت بها العقول وأكبرت من شأنها الآراء ، إلا أنا لا ننسى حقيقة ما أصاب النفس من أثرها وخطرها بقدر ما أصاب العقل والفكر من ذلك . بل لا نكون مغالين إذا رأينا أن مصاب النفس منها أشد وأعظم من كسب العقول منها ، لأن النفس لا تعلل الأشياء إلا بمنطقها الخاص — المنطق الذى لا يرى الغبطة إلا على أنها غبطة ، ولا الألم إلا على أنه ألم — فما من شك فى أن المدنية الحديثة قد وطئت كل النواحى من حياة الانسان دون استثناء ، ولم تجد ما يصدها أو يقاومها فى مواطئها ، لأنها احتلت نواحينا وصيرتها إليها ، كما يحتل الغبار ثوباً أبيض ناصعاً فيستحيل أغبر أربد . أو هى غمرتنا كما يغمر الماء الأرض ، فتصبح الأرض غير الأرض ! وعلى هذا القياس تغيرت الألوان والمعالم ، وأحدث هذا التغير قوة وجمالا

فى بعض ما أحدث ، كما ترك أثراً كبيراً من نقيضهما . أى أن المدنية غيرت وجه الحياة ومظاهر الأشياء فيها ،فبدت الحياة فى أفق جديد،وتراءت المظاهر فى ثوب قشيب،وهذا هو السر الذى يجعلنا مأخوذين بها معجبين ،ولا غرو فالنفس ولوعة بالجديد نزاعة للغريب . وفى أسباب المدنية الحديثة من أفانين السحر والطلسم ما يستهوى النفوس ويأخذ بالألباب .

إذاً فالمدنية الحديثة مظاهر مستحدثة ، ومظاهر مستحدثة لجميع الصفات والأشياء التى تحيط بنا فنتأثرها ، وإن من تلك الصفات ما هى قبيحة ومنها ما هى حسنة ، بل إن ناموس هذه المدنية قد استدعى تقوية الناحيتين وتعزيز الجانبين :الناحية المضيئة ،والناحية المظلمة، وكيف لا وهذا شىء طبيعى ، لأنه ما فائدة كثرة المصابيح وازدياد قوتها إذا لم يكن هناك ظلام شديد حالك ؟ ! وكذلك تفوقت المدنية فى كل شىء ، فلقد تعددت سيئاتها كما تعددت حسناتها ، وأصبح التفنن فى أسباب الشر والموت متفوقاً تفوقه فى أسباب الحياة ومباهجها ، فهاهو ذا مثقال الإثم والإجرام ومثقال التراهة والكمال يتعادلان فى الميزان،هذا أمر لا ريب فيه ، أيكون لبراعة البوليس فى العالم ونشاطه من سبب غير براعة المجرمين ونشاطهم العجيب؟

***

ذلك لأن نهضة المدنية الحديثة مستندة على سواعد الحرية المطلقة أو الإباحية والتبسط فى كل شىء ،بقطع النظر عن كون ذلك الشىء نافعاً أو ضاراً ، جالباً للخير أو عاملا للشر ، داعياً للأمن والسلام أو منيراً للحرب والدمار ، فكان لا بد أن تتسع الدوائر : دوائر النزاع والخلاف والشقاق والحسد والانتقام والتنافس والتناحر والتزاحم والإجرام . ولقد صدق القائل إذ قال مرة فى معرض حديثه عن هذه المدنية: « كأن الإجرام صفة لازمة للمدنية، أو كأنه مثل كل شىء فى هذا العالم خاضع لناموس النشوء والارتقاء » . حقاً إن الاجرام صفة لا غناء للمدنية الحديثة عنها،ففى خطوات هذه المدنية قدم من الخير وقدم من الشر،فكأنها تتقدم إلى العالم فتصافحه بيد وتصفعه بيد !

وهناك ما يساعد على الإجرام ، والإجرام الذى لم يعرفه العالم قبل أن يرتطم بصخرة المدنية الحديثة ، بل إن هناك ما يجب الخاطر إليه وعلاً النفس منه ، فالأسباب متوفرة والنواحى إليه متعددة . ألا ترى أن التنازع والتنافس قائمان على أشدهما ! ألا ترى أن الضعيف الخائر فى هذا الميدان — ميدان المطارحة والمجاوبة بقذائف المنافسة والمنازعة — كثيراً ما يستولى عليه اليأس فالقنوط فالزهد فى البقاء فالخلاص من الحياة ؟

كم ترى من الثورات النفسية التى تثيرها عواصف هذه المدنية الحمقاء ؟ وكيف أن هذا يجر حتما إلى الوقوع فى المساوىء والشرور والإقبال على الفتك والهتك والأذى ؟ فهاهو ذا الانتحار يسمو مركزاً فى أذهان صقلتها المدنية الحديثة ، أذهان الأطباء! فكم من طبيب

سمعنا أنه تجرع السم فآثر بذلك الموت منتحراً على البقاء جائعاً، في الوقت الذي يفهم فيه، بل يفهم الناس فيه أن الإمساك عن الأكل أحسن ما تعالج به آلام المعدة والأمعاء! وها هو ذا القتل والغدر قد فشى أمرهما واستفحل خطبهما بين ربوع أخضر فيها عود المدنية الحديثة فأصبح دم الانسان أرخص ما في الإنسان .. وهاهي ذي الجرائم العظيمة التي كانت فيما مضى مستبعدة الوقوع حتى في الأحلام والأوهام ، وحتى أن خيال المرء كان لا يجرؤ على رسمها وتصويرها .

وناهيك ما ذكرته إحدى الصحف من أن البوليس في (بيزته) بفرنسا بارئة المدنية الحديثة، قد قبض على رجل في السنة الثامنة والأربعين من عمره يدعى جبريل فيدال بتهمة الاعتداء على عفاف ابنته ! وقد ظل هذا الوحش من الآباء يعاشر ابنته معاشرة الأزواج دون أن يعلم بأمره أحد، إلى أن حملت المسكينة منه فأسرعت إلى المستشفى حيث قصت قصتها المحزنة المخزية، فاعتقل الوالد المجرم وقدم للمحاكمة . وقد أنكر التهمة بالرغم من أن ابنته أكدتها، وبالرغم من شهادة أبنائه عليه ، وكانوا قد كتموا أمر أبيهم خوفاً منه أو خوفاً عليه .

يرتكب اليوم هذه الجريمة وغيرها من كانوا بالأمس ينكرون على الهمج أكلهم للناس، فأين آكلو البشر من آكلي الأعراض ؟ وتقع مثل هذه الجريمة في بلاد يضع أهلها القوانين والأحكام ويجري على سراطهم في العلوم والفنون والسنن والأحكام جميع العالمين ، فما معنى هذه المدنية وما معنى الحضارة وما معنى الأخلاق في أمة كان جبريل فيدال أحد أبنائها الأعزاء ؟! وهل بعد ذلك من يقول إن المدينة الحديثة تمحو آثار الإجرام ؟

ليست هذه المدنية ولا آدابها ولا فنونها ولا علومها ولا مالها ولا سلطانها ولا اختراعاتها ومستحدثاتها بقادرة جميعاً على منع الإجرام وإن كانت هي التي أوجدته ونوعت أسبابه وأكثرت من أساليبه . إذاً ما هو الشيء الذي يمنع الإجرام ؟ الشيء الذي يطهر النفوس البشرية من كل خبيث منكر ، فلربما تطورت هذه الآداب — وهي كغيرها دائمة التطور — فأصبحنا نسمع عن آداب القتل وآداب الانتحار وآداب السرقة وآداب الفجور وآداب التهتك والخلاعة وآداب الجنون والمجون الخ، كما نسمع الآن عن فنون الانتحار والقتل ، وكما نسمع عن علوم السلب والنهب، ومدارس الخطف والنشل التي أخرجت للناس أساتذة يخطفون طفل (لندنبورج) وغيره من (البورجات) ! فلا يستطيع أي إنسان ولا تستطيع أية قوة أو حكومة أن تأتي به غير الدولارات !! وهذا التطور — أو التطير — في السرقة من أهم مميزات المدنية الحديثة.

وإنما فيما أعتقده وأؤكد فيه اعتقادي ما يعصم الناس من ارتكاب الجرائم هو شيء واحد، هو الدين الحنيف الرقيب على النفس المصور لها كل جميل وكل خير وكل سلام ، السلطان الطبيعي عليها، فهو بحكم طبيعة النفس. ولكن يظهر أن المدنية الحديثة لا تعرف الدين وقوته ولا تأثيره ولا نفعه فتستفيد منه وتستضيء به ، بل هي خرجت على كل الأديان. بيد أنني الآن لست في مكان التدليل على خطأ المدنية الحديثة في عدم أخذها بمعصم الدين ، ويكفي أن أقول إنها على ما فيها من حسنات أكبر جناية على الإنسان ؟

[الخرطوم . سودان] محمد صالح إبراهيم